المَوْرِدُ العَذْبُ لِذَوِي الوُرُودِ

في

كَشْفِ مَعْنَى وَحْدَةِ الوُجُودِ

تأليف

الشيخ القطب مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري

المتوفى ١١٦٢هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشيخ مصطفى البكري*

١٠٩٩ هـ - ١١٦٢ هـ

قال الجبرتي: هو الأستاذ الأعظم قدوة السالكين وشيخ الطريقة والحقيقة ومربِّي المريدين الإمام المسلك الخلوتي. لما ارتحل إلى إسلامبول لبس فيها ثياب الخمول، ومكث فيها سنة لم يؤذن له بارتحال ولم يدرِ كيف الحال، فلما كان آخر السنة قام ليلة فصلّى على عادته من التهجُّد، ثم جلس لقراءة الورد السحري، فأحبّ أن تكون روحانية النبي ﷺ في ذلك المجلس، ثم روحانية خلفائه الأربعة والأئمة الأربعة والأقطاب الأربعة والملائكة الأربعة، فبينما هو في أثنائه إذ دخل عليه فشمّر عن أذياله كأنه يتخطّى أناساً في المجلس حتى انتهى إلى موضع فجلس فيه، ثم لما تمّ الورد قام ذلك الرجل فسلّم عليه ثم قال: ماذا صنعت يا مصطفى؟ فقال له: ما صنعت شيئاً، فقال له: ألم ترني أتخطى الناس؟ قال: بلى إنما وقع لي أني أحببت أن تكون روحانية من ذكرناهم حاضرة، فقال له: لم يتخلّف أحد ممن أردت حضوره، وما أتيتك إلا بدعوة، والآن أذن لي في الرحيل وحصّل الفتح والمدد، والرجل المذكور هو الوليّ الصوفي السيد محمد التافلاتي؛ ومتى عبر السيد في كتبه بالوالد فهو السيد محمد المذكور، وقد رأى سيدي مصطفى البكري النبي ﷺ وقال له: من أين لك هذا المدد؟ فقال: منك يا رسول الله، فأشار أن نعم. ولقي الخضر عليه السلام ثلاث مرات. وعرضت عليه قطبانية المشرق فلم يرضها. وله مؤلفات نافعة كثيرة، وقد أحيا الطريقة الخلوتية ولم يرَ أحد من عصره إلى الآن من مشايخها نظيره.

وقال المرادي في «سلك الدرر» مصطفى البكري بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين الصديقي الحنفي الدمشقي البكري الأستاذ الكبير والعارف الرباني الشهير صاحب الكشف والواحد المعدود بألف، صاحب

---

* هذه الترجمة هي للشيخ يوسف النبهاني من كتابه جامع كرامات الأولياء [٢/ ٣٨٧ - ٣٩٣] طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

العوارف والمعارف والتأليف والتحريرات والآثار التي اشتهرت شرقاً وغرباً، وبعُد صيتها في الناس عجماً وعرباً، أحد أفراد الزمان، من العلماء الأعلام والأولياء العظام، العالم العلاّمة الأوحد أبو المعارف قطب الدين. ولد بدمشق ١٠٩٩هـ ونشأ يتيماً، واشتغل بطلب العلم، وقرأ على مشاهير العلماء، وأجاز له الشيخ محمد البديري الدمياطي الشهير بابن الميت، والشيخ محمد عقيلة المكي، والشهاب أحمد النخلي المكي، وعبد الله بن سالم البصري المكي، وجميعهم أجازوا له، ولازم الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي، وقرأ عليه كتب التصوُّف لسيدي محيي الدين وطرفاً من الفقه، وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ عبد اللطيف الحلبي، وسمعه مرة يقول: الجنيد لم يظفر طول عمره إلا بصاحب ونصف، فقال له: وكم ظفرتم أنتم ممن يوصف بالتمام؟ فقال له: أنت إن شاء الله تعالى، ثم توفي الشيخ واجتمع تلاميذه عليه وجدّدوا أخذ البيعة عنه، فشاع خبره وذاع أمره وكثرت جماعته وانتشرت ألويته، وسافر إلى بلاد كثيرة منها القسطنطينية وبلاد الروم والعراق وحلب والموصل وبلاد الشام ولبنان وبغداد والقدس ومصر والحجاز، وفي كل هذه البلاد انتشرت عنه الطريق وعمّ الإرشاد وزار مَن فيها من الأولياء أحياءً وأمواتاً، وأقام في القدس مدة طويلة، ولم يترك التأليف سفراً وحضراً، وأخذ العهد العام على جميع طوائف الجن أن لا يؤذوا أحداً من مريديه الذين أخذوا عنه أو عن ذريته بمشهد كان فيه السيد محمد التاقلاتي مفتي القدس وغيره من المريدين، وأخذ عنه خلائق كثيرون، ومن الجن سبعة ملوك وأسماؤهم محرّرة في بعض مؤلفاته. ولما توجه إلى مصر تلقاه الأستاذ الحفني أعظم خلفائه، ومعه خلائق كثيرون من علماء مصر ووجوه أهلها، وأفرد له داراً وأقام هناك مقبلاً على الإرشاد والناس يهرعون إليه مزدحمين عليه...

وقال الشيخ حسن بن علي شمّة المصري الفوي في كتابه الذي ألّفه في مناقب شيخه الحفني أعظم خلفاء سيدي مصطفى البكري: أخبرني أستاذي عنه: أي عن شيخه السيد مصطفى البكري، أنه جمع مناقب نفسه في مؤلَّف بلغ نحو أربعين كرّاساً تسويداً في الكامل ولم يتم، وقد رأى النبي ﷺ مرة في النوم وقال له: من أين لك هذا المدد؟ فقال: منك يا رسول الله، فأشار أن نعم، ولقي الخضر عليه السلام ثلاث مرات، وعرضت عليه قطبانية المشرق فلم يرضها، قال: وأخبرني من أثق به أنه كان إذا مشى على أرض فُرش له بساط من نور يمشي عليه، حتى سار مع بعض أولياء عصره مرة، فقلع ذلك الوليّ نعله فقال: لمَ فعلت ذلك؟ قال: أستحي أن أمشي على بساط كرامتك بنعلي. وكان أكرم من السيل وأمضى في السرّ من السيف، وأوتي

مفاتيح العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه في مشارق الأرض ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجنّ العهود وعمّ مدده سائر الوجود، وسمعت أستاذنا، يعني القطب الحفني يقول بعد وفاته: إني أود الآن لو كان أستاذنا الصديقي حياً وأكون خادماً له فقط وأحظى بلثم أعتابه، قال: ثم حجّ مولانا السيد الصديقي عام إحدى وستين، وعاد من الحجاز إلى القاهرة فمرض عقب دخوله مدة شهر، فحان مولد السيد البدوي، فأراد الشيخ أستاذنا الحفني أن يتخلّف عن الذهاب إليه لأجل السيد، فأشار إليه بعدم التخلُّف، فتوجه أستاذنا إلى المولد الشريف، فتوفي السيد الصديقي وهو في المولد ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الثاني عام ١١٦٢هـ، ودُفن بالقرافة الكبرى خارج القاهرة، وقبره ثمَّ مشهور، بزيارته تضاعف الأجور، وقد عمل له أستاذي في شهر شعبان من هذا العام مولداً عظيماً شدّت إليه الرحال، وحطت لديه الأثقال، وتطاولت دونه الآمال.

وبالجملة فمناقب هذا السيد الجليل تجلّ عن التعدُّد، انتهى كلام الشيخ حسن شمّة باختصار.

ومن أعظم كراماته: كثرة مؤلفاته نظماً ونثراً مع اشتغاله بالطريق والأسفار في الأقطار وأنواع العبادات والاجتماعات مع الناس. قال الشيخ حسن شمة: وتآليفه تقارب المائتين، وأحزابه وأوراده أكثر من ستين. قال المرادي: وألّف مؤلفات نافعة، منها: شرحه على الهمزية، وشرحه على ورد الوسائل، وشرحه على حزب الإمام الشعراني، وشرحه على قصيدة المنفرجة لأبي عبد الله النحوي، وشرحه على قصيدة الإمام أبي حامد الغزالي التي أولها:

الشدة أودت بالمهج   يا ربّ فعجِّل بالفرج

وشرحه على بيت من تائية ابن الفارض، وله اثنتا عشرة مقامة واثنتا عشرة رحلة، وسبعة دواوين شعرية، وألفية في التصوُّف، وتسعة أراجيز في علوم الطريقة، ورسالة سماها تبريد، وقيّد الجمر في ترجمة الشيخ مصطفى بن عمرو. ومرهم الفؤاد الشجي في ذكر يسير من مآثر شيخنا الدكدكجي. والمنهل العذب السائغ لورّاده في ذكر صلوات الطريق وأوراده. والروضات العرشية على الصلوات المشيشية. وكروم عريش التهاني في الكلام على صلوات ابن مشيش الداني. وفيض القدوس السلام على صلوات سيدي عبد السلام. واللمحات الرافعات غواشي التدهيش، عن معاني صلوات ابن مشيش. والورد السحري الذي شاع وذاع وعمّت بركاته البقاع وصار ورداً

لا يضاهى وحقائقه لا تتناهى، شهرته تغني عن الوصف والتحرير، ومعانيه ومزاياه لا تحصيها أقلام التحبير، شرحه ثلاثة شرح أحدهما سماه «الضياء الشمسي على الفتح القدسي» في مجلدين ضخمين. والثاني رفيع المعاني سماه «اللمح الندسي على الفتح القدسي» والثالث الذي لكشف أسراره باعث «المنح الأنسي على الفتح القدسي» ومن مؤلفاته: السيوف الحداد في الرد على أهل الزندقة والإلحاد. والفرق المئذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب. وهذان التأليفان من أعجب العجاب لمن كشف له النقاب، فمَن أراد فليراجعهما ففيهما ما تشتهيه القلوب وما تشتاقه من كل مطلوب ومرغوب. والوصية الجنية للسالكين في طريق الخلوتية. والنصيحة الجنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية. والحواشي السنية على الوصية الحلبية. وبلوغ المرام في خلوتية الشام. ونظم القلادة في معرفة كيفية إجلاس المريد على السجادة. وله في الحقيقة مقامات: الأولى: المقامة الرومية والمدامة الرومية. والثانية: المقامات العراقية والمدامة الإشراقية. والثالثة: المقامة الشامية والمدامة الشافية. والرابعة: الصمصامة الهندية في المقامة الهندية. وهي ـ أعني هذه المقامات ـ في أعلى مقام البلاغة والفصاحة. وبلغة المريد ومنتهى موقف السعيد نظماً. وألفية في التصوُّف، وكل ذلك في آداب الطريقة العليّة.

ومن تآليفه رضي الله عنه: تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة. وتسلية الأحزان وتصلية الأشجان. ورشف قناني الصفا في الكشف عن معاني التصوُّف والمتوصف. والصفا والمدام البكر في بعض أقسام الذكر. والثغر البسّام فيمن يجهل من نفسه المقام. والكأس الرائق في سبب اختلاف الطرائق. والتواصي بالصبر والحق امتثالاً لأمر الحق. والوارد الطارق واللمح الفارق. والهدية الندية للأمة المحمدية. والموارد البهية في الحكم الإلهية على الحروف المعجمة الشهية. وجمع الموارد من كل شارد. والكمالات الخواطر على الضمير والخاطر. والجواب الشافي واللباب الكافي. وجريدة المآرب وخريدة كل سارب شارب. وهدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب. والكوكب المحمي من اللمس بشرح قصيدة الجيلي سلاف تريك الشمس. ورسالة الصحبة التي انتخبتها الخدمة والمحبة. ورسالة في روضة الوجود ورفع الستر والردا عن قول العارف أروم وقد طال المدى. وأرجوزة الأمثال الميدانية في الرتبة الكيانية. والمطلب الروي على حزب الإمام النووي. وله شرح على ورد الشيخ أحمد العسالي. وشرح على رسالة سيدي الشيخ أرسلان، والبسط التام في نظم رسالة السيوطي المقدام. وله: الدرّ الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق. والفيوضات

البكرية على الصلوات البكرية لسيدي محمد البكري الكبير. والصلاة الهامعة بمحبة الخلفاء الجامعة. ونيل وفا على صلوات سيدي على الوفا. والمدد البكري على صلوات البكري، صلوات أخرى غير السابقة لسيدي محمد البكري. والهبات الأنورية على الصلوات الأكبرية، لسيدي محيي الدين بن العربي، واللمح الندية في الصلوات المهدية، والنوافح القريبية الكاشفة عن خصائص الذات المهدية. والهدية الندية للأمة المحمدية فيما جاء في فضل الذات المهدية. وله رضي الله عنه: نظم أحاديث نبوية ومقدمة أربعون حديثاً وخاتمة سنية. والأربعون الموروثة الانتباه فيما يقال عند الانتباه. وله رضي الله عنه: تفريج الهموم وتفريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم. والخمرة المحسية في الرحلة القدسية والحلة الذهبية في الرحلة الحلبية والحلة المغنية. رسوم الهموم والغموم في الرحلة الثانية إلى بلاد الروم. والثانية الإنسية في الرحلة القدسية. وكشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان. والفيض الجليل في أراضي الخليل. والنحلة النصرية في الرحلة المصرية. وبرء الأسقام في زمزم والمقام. وردّ الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان. ولمع برق المقامات. العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال. وله رضي الله عنه بهجة الأذكياء في التوسُّل بالمشهور من الأنبياء. والابتهالات السامية والدعوات النامية. والورد المسمى بالتوجه الوافي والمنهل الصافي. والتوسلات المعظمة بالحروف المعجمة. والفيض الوافر والمدد السافر في ورود المسافر. والورد الأسنى في التوسُّل بأسمائه الحسنى. وسبيل النجاء والالتجاء في التوسل بحروف الهجاء. وأوراد الأيام السبعة ولياليها.

وقد ترجم رضي الله عنه كثيراً من مشايخه وممن اجتمع عليهم. فمن ذلك: الكوكب الثاقب فيما لشيخنا من المناقب. والثغر الباسم في ترجمة الشيخ قاسم. والفتح الطريّ الجنيّ في بعض مآثر شيخنا عبد الغني. والصراط القويم في ترجمة الشيخ عبد الكريم. والدرر المنتشرات في الحضرات العندية في الغرر المبشرات بالذات العبدية المحمدية. وله ديوان الروح والأرواح. وله عوارف الجواد التي لم يطرقهن طارق، قد أبدع فيه وأغرب، وجعله مبنياً على ذكر حاله ووقائعه من ابتدائه إلى انتهائه على طريقة الإجمال، هذا ما وقفت عليه ووصل سمعي إليه، وله غير ذلك من التآليف، انتهى ما ذكره المرادي من تأليفاته.

يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: وقد وقفت على كثير من مؤلفاته رضي الله عنه ولله الحمد، ورأيت منها بخطه الشريف المقامة الرومية وعليها

تقريظ بخط ناظمه العلامة الشيخ يوسف الحفني صاحب حاشية الأشموني، وهو أخو الأستاذ الحفني الشهير، وهذا هو التقريظ:

تقول مقامات الحريري أن رأت ... مقامة هذا القطب كالكوكب الدري
تضاءل قدري عندها ولطائفي ... وأين ترى الأقدام من أنفس الدرّ
فهذي لأهل الظرف تبدي ظرائفاً ... وللواصل المشتاق من أعظم السرّ
فكيف ومنشيها فريد زمانه ... أجلّ همام قال نوديت في سرّ

ورأيت خطه الشريف رضي الله عنه على كتب أخرى له من تآليفه موجودة الآن في القدس الشريف عند آل أبي السعود، الذي أوقف كتبه في حياته من مؤلفاته وغيرها، ووضعها في زاويتهم في جوار المسجد الأقصى، وقد ضاع أكثرها الآن ولم يبقَ منها إلا القليل في أيدي بعضهم. وعندي من تأليفاته عدة كتب مما ذكره المرادي ومما لم يذكره، ومن جملتها: شرح حزب النووي، وعليه خطه الشريف في آخره إجازة لمالكه، وهذه عبارته بنصها: بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد للّه العلي العظيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم وبعد: فقد أجزت مالك هذا الكتاب الشيخ محمد به وبأصله المشروح، وبما لنا من أوراد وأذكار وصلوات على النبي المختار، قال ذلك ورقمه العبد الفقير إليه تعالى مصطفى سبط آل الحسنين الأحسنين الصديقي عفا الله عنه بمنّه وكرمه، آمين اهـ.

وقد أحببت أن أنقل هنا فوائد تتعلّق بسيدي مصطفى البكري من كتابه «السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد» وعنى بهم الذين يزعمون أنهم من الصوفية ولا يتقيّدون بالأحكام الشرعية، قال رضي الله عنه: قال سيدي عليّ بن علوان: يعني الحموي رضي الله عنه في كتابه المسمى بـ«مصبح الهداية ومفتاح الولاية» وليرغب أي العالم التلامذة في علم السلوك والطريقة والحقيقة بعد ضبط الشريعة، وإلا فالحقيقة بدون الشريعة زندقة، شاهدنا ذلك وخبرناه، بل المرشد الصادق أول ما يندب المريدين إلى أحكام الشرع وضبطه، وتطهير النفس وتصفية القلب وصقله بدوام الذكر والمجاهدة، فإذا تجلّت الحقيقة فيه بعد ذلك كان نوراً على نور، وإن لم يفتح له في الحقيقة فهو على ساحل السلامة في برّ الشريعة ورياض الطريقة، والمتحقق قبل الشرع وحفظه لا وفعلاً هو إلى الزندقة أقرب، إلا أن يكون مجذوباً جذبة ربانية فيصير حينئذ في طور لا يعرفه إلا من شهده، ولربما برز على ظاهره ما هو مخالف للشريعة وهو محقّ من حيث الحقيقة، وشاهد ذلك قصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام

كما تضمّنها الكتاب العزيز والسنّة، ولكن هاهنا مزلّة الأقدام وموطن الدعاوى والغلط، وصحّ في الحديث النبوي الذي رواه الشيخان **«التشبّع بما لم يعط كلابس ثوبَي زور»** وصحّ **«ومَن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله عزّ وجلّ إلا قلة»** رواه مسلم، انتهى.

وأقول: ومما أدركته ذوقاً في نفسي أني إذا نمت على غير طهارة أرى نفسي في تعب وعناء وأماكن خربة وأمور مكدرة، وإذا نمت على الهيئة المسنونة أرى نفسي في بسط وسرور ومحلات نزيهة، حتى أني إذا عجزت عن الوضوء لغلبة نعاس أو شدة برد أتيمم، وإن تركته ونمت فكذلك. وكثيراً ما يتفق لي إذا احتجت اغتسالاً ونمت قبله على غير طهارة أو تيمُّم رؤية أمور مهولة تزعجني وربما استفقت منها. ومن ذلك أني أجد عندي نشاطاً ما دمت على طهارة، فإذا أحدثت ولم أتوضأ أجد في باطني ضيقاً وقبضاً. وكذلك إذا فاتني قيام ليلة أجد تغيُّراً في باطني في ذلك اليوم ولا أعلم له سبباً إلا عدم القيام مع أنه لا صنع لي فيه.

ومما أشاهده في نفسي إذا مرّ عليّ وقت وكان الانشغال فيه بالله تعالى أكثر من الغفلة عنه، حصول انفساح وانشراح في قلبي لا يعبّر عنه لساني لأنه أمر وجداني، ويتفق لي إذا غلبني النوم قبل صلاة العشاء، وهذا الوقت يُكره فيه النوم فأحسّ بشيء لين يضرب في وجهي فأستفيق من ذلك، وأعدّ مثل هذا وما شاكله من نعم الله على عبده.

ومما أشاهد تأثيره في القلب المطعم الحرام، فإنه يُحدث ظلمة وغشاوة على القلب لا تزول إلا بمجاهدة من حبس النفس وإشغال القلب بالذكر وإيقاد نار الخوف من الله فيه والشوق الذي يصفيه، وأكثر أهل الطريق إذا أحسُّوا بثقله في قلوبهم يستدعون القيء كما فعل الصدِّيق رضي الله عنه، وبما ادّعى هؤلاء الرعاع أن قلوبهم كالبحر لا يعكرها الدلاء مع نص أهل الطريق أن ظلمة الحرام تؤثر في قلب كل أحد على حسب مقامه حتى القطب، وفعل الصديق من أقطع حجة وأرفع محجة. ومما نشاهده في نفوسنا إذا وقعت منا هفوة كغيبة أو أذية أحد ولو بالقلب، اختلاف سير القلب وانقباضه وجموده وضيقه حتى كأنه بين جبلين انطبقا عليه، وكلما عظمت المعصية عظم الكرب واشتدّ البلاء، هذا مع سرعة المبادرة للتوبة والاستغفار والاعتراف بالجرم وعدم الإصرار، لكن هذا من لطف الله بعبده حتى ينتبه ويرجز عن المعاصي، ولا يغترّ بأناس أماتت الذنوب قلوبهم واستولت عليها، فلا يحسُّون بقسوة

ولا يدركون أثر هفوة. جاء في الحديث الشريف «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذي ذكر الله** ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: الآية ١٤] » رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة.

ومما نشاهده إذا أقمنا صلاة بما ينبغي لها نجد لها في القلب نوراً عظيماً حتى نرى الالتفات في الصلاة يضعف تأثيرها لما في الحديث «**إياكم والالتفات في الصلاة فإنها هلكة**» وفيه أيضاً «**ما التفت عبد قط في صلاته إلا قال له ربه: أين تلتفت يا ابن آدم؟ أنا خير لك مما تلتفت إليه**» وفي رواية «**لا تلتفتوا في صلاتكم فإنه لا صلاة لملتفت**» إلى غير ذلك.

والحاصل أن كل عمل من أعمال الشريعة المطهّرة يجد العامل به نوراً أو سروراً، ويورثه قربة وحضوراً، ويكشف الحقّ له به عن قلبه ستوراً، ومَن أخلّ بآدابها ولم يعتصم بأسبابها وادعى وصولاً فهو صادق، لكن إلى سقر أو حصولاً فكذلك لكن على صفات البقر، ولا يحتاج الموفق بعد العيان والوجدان إلى دليل ظاهر أو برهان، فليس بعد العشية من عرار، ولا بعد عبادان من دار، فإن التمسُّك بالشريعة الغرّاء أعظم بركة من نخلة مريم، وأطيب من عطر منشم، وإياك أن تفرّق جمع قلبك على الحقّ هذه الفرقة الزنادقة الأسافل، وتمسك بحبل الله المتين، والزم حمى الفرائض والنوافل، فما بعد هدى المصطفى وشريعته المستنيرة حيرة، ولا بعد سيرته العلية وسيرة العمرين والأصحاب سيرة، لكن الأمر كما قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به من اهتدى ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٩٧] انتهى كلام سيدي مصطفى البكري باختصار وتصرُّف قليل.

الرسالة الأولى

المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود

للعارف بالله تعالى الشيخ
مصطفى البكري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

الحمدُ للّهِ فَتّاحِ الوجُودِ، ومنّاح الفَيض والشُّهود، مُظْهِر العَالم مِنْ خَزَائِنِ الجُود، بواسطة أمَّهاتِ الأسْماءِ[1] بلا جحود، وعنها كان ما كان من الفَرشِ إلى العرْشِ المصمود، والذَات الإلهية لها الغنى المُطْلَق عن كل موجُود، وعند توجهها للإيجاد الكَوْنِي بالإِمدادِ الصُّوفي المشهُودِ، أظهرتْ القُدرة حسب مَا خَصَّصَتْهُ الإرادَةُ، صُورة مَا فِي العَالَم المُنَزَّه عن القُيود، فَبَرَزَ مِثَالُ مَا في الحَضْرةِ الغَيبيّة، للمنزلةِ العَينيةِ ذَاتِ الحدُود، وارتسمَتْ أمثلةُ الحُروف العَاليَاتِ[2]، في مرايَا المَجَالي الغَالِيَات، وانْفَتَحَ البَابُ المسْدُود، وما شَمَّتَ الأعْيَانُ الثَّابِتَةُ[3] في العِلْمِ المقصُود، رائحة الوجُود

---

(١) أمهات الأسماء: وتسمى أصول الأسماء، وأئمة الأسماء، والأئمة السبعة، والحقائق السبعة الكلية، والأسماء الكلية الأصلية وهي سبعة: الحي والعالم والمريد والقائل والقادر والجواد والمقسط. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

(٢) الحروف العاليات: يعنون بها أعيان الكائنات من حيث تعينها في أعلا مراتب التعيُّنات التي هي الوحدة، فإن الكائنات هنالك إنما هي شؤون الذات لا يصح فيها تكثر في ذاتها، ولا تكثير لغيرها لاستحالة ذلك في الوحدة الحقيقية مع اشتمالها على جميع ما يظهر عنها فتسمى نسب تعينات المبدعات في هذه المرتبة العلمية بالحروف العلوية، وبالحروف العاليات. وهذا هو معنى قول الشيخ في كتابه المسمى بـ«المنازل الإنسانية» رضي الله عنه:

كُنّا حُرُوفاً عَالِيَاتٍ لَمْ تَزَلْ ... مُتَعَلِّقَاتٍ في ذُرَى أعْلا القُلَلْ
أنا أنتَ فِيهِ ونحن أنْتَ وأنْتَ هُوَ ... والكُلّ في هُو هو فَسَلْ عَمَّنْ وَصَلْ

وذلك لاستحالة الكثرة في أول الرتب لمنافاة الوحدة لها. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

(٣) الأعيان الثابتة: هي حقائق الممكنات في حضرة العلم، سميت أعياناً ثابتة لثبوتها في المرتبة الثانية، لم تبرح منها، ولم تظهر بالوجود العيني إلا لوازمها وأحكامها وعوارضها المتعلقة بمراتب الكون، فإن حقيقة كل موجود إنما هي عبارة عن نسبة تعيُّنه في علم ربه أزلاً، ويسمى باصطلاح المحققين من أهل الله تعالى أعياناً ثابتة وباصطلاح الحكماء ماهية، وباصطلاح الأصوليين المعلوم المعدوم، والشيء الثابت، ونحو ذلك، وبالجملة فالأعيان الثابتة والماهيات والأشياء إنما هي عبارة عن تعيُّنات الحق الكلية التفصيلية. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

في العينِ لسِرِّ إلى القُرْب يَذُود، إذ معلومات القَديم في رُتْبَةِ علمِه قديمة، لعز رواقه ممدود، وتَنزَّه عن سماتِ الحدُوثِ الممشُوقَة القُدودِ.

وقَدْ كانَ سُبْحانَهُ ولا شيء مَعَهُ[١]، في الأزَلِ، والغير مَفْقُود، مُسَمَّى بالأسْمَاءِ، مَوْصُوفاً بالصفات، واحدُ الوُجُود، ولما أحَبَّ أنْ يُعْرفَ جلَّ عُلاَه، من الكَنْز المخْفي[٢]، والغيْبِ المؤدُود، حَصَل التَّدَلِّي والتَّجَلِّي في المراتب القديمة، وعنها ظهرَتْ الذاتُ المحمدية، والدرة اليتيمة، لسابِق وُعود، فكانَتْ حقيقةُ القلم الأعْلَى، والعقْلُ الأوَّلُ، والنور البرزخي المحمود، ويشير إليه حديث «**أول مَا خَلَقَ الله نُور نبيكَ يَا جابِر**»[٣].

وهذا الشاهد المشهود: هو الدرة البيضاء، والقبة الخضراء، وقبضة النور المسعود، صلى الله تعالى عليه، وعلى آله وأصحابه، مطالع السعود، ومَعَارج الصُّعود، وعلى التابعين لَهُم بإحسان، ما تحقق سَالك، ما به جُمود، ولا عَرَاهُ خُمود، في معنى «وَحْدَةِ الوُجود»[٤]، على ما هو المراد والمقصُود.

وبعد؛ فيقول العبد الفقير للمولى الغني الودود، مصطفى بن كمال الدين بن علي ـ سقاهم الله من الحوض المورود ـ سبط الحسنين الأحسنين الصديقي، منح مدداً للبر، يقود. قد ألف الأعيان من أهل العيان، قديماً وحديثاً، رسائل في معنى وحدة

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء..**» الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، حديث رقم (٣٠١٩) [٣/ ١١٦٦] ورواه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السِّيَر، حديث رقم (١٧٤٨٠) [٩/ ٢] ورواه غيرهما.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١٦) [٢/ ١٧٣].

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حرف الهمزة مع الواو، حديث رقم (٨٢٧) [١/ ٣١١].

(٤) وحدة الوجود: يعني به عدم انقسامه إلى الواجب والممكن، وذلك أن الوجود عند هذه الطائفة ليس ما يفهمه أرباب العلوم النظرية من المتكلمين والفلاسفة، فإن أكثرهم يعتقد أن الوجود عرض، بل الوجود الذي ظنوا عرضيته هو ما به تحقق حقيقة كل موجود، وذلك لا يصح أن يكون أمراً غير الحق عزّ شأنه.
وأيضاً، لما كان للذات الموصوفة بالوحدة اعتباران:
أحدهما: اعتبار واحديتها، وإحاطتها، وشمولها للأسماء والحقائق، وهي الحضرة التي تسمى مرتبة الجمع والوجود كما عرفت.
وثانيهما: اعتبار أنها هي عين تلك الحقائق التي اشتملت عليها وأحاطت بها لا غيرها، وكان الوجود أصل تلك الحقائق، وأظهرها حكماً للمدارك، فكان الوجود عين الذات بهذا. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

الوجود، وأفصحوا عن المراد منها والمقصود، وحققوا أن العقول بها موافق لما عليه أهل السنة والجماعة القود، وجعلها البعض من العلم المضنون به، عن غير أهله، الباذلين في طَلَبِهِ المجهُود، وقال آخرون: هي من العِلْمِ الوَاجب بَثّه، لمن يَطْلبُ قرباً أن يسود.

والأول: اختيار السلف كالحسن البصري، وأضرابه أهل العقود، وقَضِيته مع فرقد السبخي شائعة، مرفوعة البنود، وحديث أبي هريرة، وسلمان، وابن عباس، في كتب الحديث موجودة، وآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، لكنها من أعظم الشواهد التي لا يجلها ذو رقود.

ولقد ظهر الآن من يدَّعي العرفان، وهو عَرِيٌّ عنه مبعود، إذ للمعرفة علامات، لا تخفى عند أهل بان زرود[1] المعرفة الخاصَّة ذات الوجه المُبرق، الملمع الرعُود، إذا صاحبها كما قال [الشيخ عبد الوهاب] الشعراني في «الجوهر والدرر» الجامِعُ لما يدق عن بُروق طبع الجلمود[2]؛ وهو من لا يجهلُ حكماً واحداً من جميعِ صَرِيح شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسّلام.

فمن ادعى مقام المعرفةِ، وهو جاهِلٌ بحكم من الأحكام في الشريعةِ المُحمديَّة أو غيرهَا!، أو استشكَل آية أو حديثاً، أو قولاً من أقوال المجتهدين أو غيرهم، فهو كذاب في دَعْوَاه المعرفة، ولا يصلح له أن يجلس لإرشاد السالِكِينَ، وهذا معنى قول بعضهم: ما اتَّخَذَ الله ولياً جاهلاً ولو اتخذَهُ لعلَّمه.

ثم عُرفَ العَارفُ، في لسان الصوفية: أنه من أُشْعِر الهيبة نَفْسُه، والسكينةَ قلبه، ولم يكن له علاقة صارفة عن الحقِّ، وأطالَ بما لا يحوم حول حمَاه بطال، ثم إن هؤلاء المدعينَ بها، بغير شُهودٍ، يقررون كلام القومِ، ومعنى «وحْدَة الوجُود»، على خلاف المقصود، فاستحقُّوا بذلك الوَبَال والنَّكَال، والنار ذات الوقود، وجعلوا لهم في ذلك مذهباً، غير نافذ بل مسدود، لمخالفة النصوص، والأحكام الظَّاهرة والحُدود، فأورثهم الخروج عن دائرة الملة الحنفية السَّمْحة، ذات الزُّهور والوُرود.

---

(١) البان: شجر يُستخرج من حَب ثمره دهن طيب، وحبه نافع للبرش والنمش والكلف... إلخ. (القاموس المحيط للفيروزأبادي). وزرود: بفتح أوله وبالدال المهملة في آخره: جبل رمل... وهو بين ديار بني عبس وديار يربوع (معجم ما استعجم للبكري) وفي لسان العرب لابن منظور: زرود موضع، وقيل: زرود اسم رمل مؤنث.

(٢) الجلمود: الصخر..، أصغر من الجندل قدر ما يرمي بالقَذَّاف. (لسان العرب).

وفي شأنهم وحالهم المكمود، المردود، ألفت رسالة «السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد»، وقد رأيتها مناماً في يد سيد العِبَاد، وسند العُبَّاد ـ الذي من حاد عن منهاجه فهو المطرود ـ وجنابه الشريف يتصفحها مبتسماً، وجنود البشر تمود، فعلمت أنها وقعت منه ﷺ، موقع القبول، ووضعها على وسادة لها ارتفاع وطول، فحمدت الله تعالى المعبود، ووضعت قبلها رسالة سميتها «تشييد المكانة لمن حفظ الأهانة»، مفصحة بصون الأسرار عن كل ذي عنود.

وتكرار على القلب الآن سنة ثلاث وخمسين ومئة وألف ـ وأتمها الله بخير وإحسان ـ وأنا نزيل القدس المصان، أن أضع رسالة، راجحة الميزان، كاشفة عن معنى «وحدة الوجود» للإخوان، مع إدماج فوائد حسان، منبهة لهم من غفلة الجنان، محذرة من الميل إلى زخارف أقوال الزنادقة الخوان، مسمياً لها «المَوْرد العَذب لذِي الورود في كَشْف مَعْنَى وحْدَةِ الوُجود»، والله أسأل، ونبيه أتوسل، أن يُلهمني القول الحق، المقبول عند الرسُول والحق، آمين.

[إنقسام الوجود إلى قديم وحادث]

اعلم أيُها الأخ الناهج نهج المصطفى، والساري سبيل الاقتفاء المقتفى، أن الوجود يطلق على الحادثِ والقديمِ، لكن الأوَّل لا قيام له من نفسِه، فهو كالعَدمِ، ولهذا قال أهل الشهود ـ المتمسكين بالحبل الممدودِ ـ الوجود الذي يصدق عليه اسم الوجود، واحد، وما قام به، واستمد منه، وفاض عنه، فهبائي، سلبي، خيالي، مجازي، نسبي، إذ هو مسبوق بعدمٍ، ولاحق بهِ، وكل وجودٍ بَيْنَ عدمين، حَادِث، فانٍ، فانْتَبِه.

وحيث كان الوُجُود للّهِ، ووجود الأشياء قَائم بهِ، مَوْجُود بإيجاده، بَاقٍ ببقائه، فالوجود على الحقيقة له، لا لغيره، إذ هو ـ أي الحادث ـ هالك بالنظر لوجوده، ثابت الوجود بالنظر لموجوده، فبهذا الاعتبار، غارت عيون الأغيار:

ـ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لا يقصد أحد سواه.

ـ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٥]، ليس له غير؛ خفي ولا بائن.

ـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحَديد: ٣]، فلا أول إلا به، ولا آخر، ولا ظاهر، ولا باطن.

بوجوده ـ أي الله ـ قام الوُجُودُ، وبدوام شُهُوده، ارتقى أهل الشهود، إذ هو قيُّوم السمٰوات والأرض، وقيام الكل به على التحقيق، لا التقدير والفرض، فيضُ

وجودِه متجدِّد على الدوام، ولولاه لانعدم العَالَم، واختلَّ النظامُ، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وأَمره الواحد لا نهاية له، ولا تحديد.. ، إذ كُشِفَ الحِجَابُ، يقول المكاشف: لا غير، وإذ ستر: فكل غير، لثبوت الغير، فإثبات العينية، وفي الغيرية، بحسب الوجود، ومحو القيود حالة الشهود.

وانظر قول سيدي هارون عليه الصلاة والسلام، للأكبري[١] المعدود في كمل الأمة بغير جحود، الذي ذكرهُ في الباب تسعة وستين وثلاثمائة، فإنه قال فيه: اجتمعت روحي بهارون عليه الصلاة والسلام في بعض الوقائع، فقلت له: يا نبيَّ الله كيف قلت: ولا تشمت بي الأعداء؟ ومَن الأعداء حتى تشهدهم، والواحد منا يصل إلى مقام لم يشهد فيه إلا الله، فقال السيد هارون: صحيح ما قلت في مشهدِكُم، ولكن إذا لم يشهد أحدكُم إلا الله، فهل زال العالم في نفس الأمْر، كما هو مشهدكم، أم العَالم باقٍ، وَحُجِبْتُم أنتم عن شُهودِهِ، لعظيمِ ما يتجلى لقلوبكُم؟ فقلت له: بل العالم باقٍ في نفس الأمرِ، لم يزلْ، وإنما حُجِبْنَا عَن شُهُودِهِ، فقال: قد نقص علمكم بالله في ذلك المشهد، بقدر ما نقص في شهودكم العالم، فإنه كله آيات الله، فأفادني عليه الصلاة والسلام علماً لم يكن عندي، انتهى.

[الوصلة والوصول]

وقال في فتوحاته في الباب الستين وخمسمائة: أَصدق بيت قالته العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[٢]، اعلم أن الموجودات وإن وصفت بالباطِل، فهي حق من حيث الوجود، ولكن سلطان المقام إذا غلب على صاحبه، يَرى، مَا سِوى الله باطلاً، من حيث إنه ليس له وجود من ذاتِهِ، فحكمه حُكم العَدَمِ، قال: وهذا من بعض الوجوه، التي يمتاز الحق بها، من كونه موجوداً عن وجود خلقه، مع أنه على الحقيقة ليس بينه وبين خلقه اشتراك، بوجه من الوجوه.

---

(١) يقصد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي المولود سنة ٥٦٠ هجرية والمتوفى سنة ٦٣٨ هجرية، من أشهر مؤلفاته موسوعة الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وترجمان الأشواق.

(٢) يشير إلى قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب أيام الجاهلية، حديث رقم (٣٦٢٧) [٣/ ١٣٩٥] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (٢٢٥٦) [٤/ ١٧٦٨] ورواه غيرهما.

وقال في باب الوصايا: احذر أن تَدَّعي الوَصلة، وجمع الشَّمل، فإني أخافُ عليك، أن يكون جمعك بك، لا به، فتكون في عين الفصل والفراق، فلا تغالِط نفسك، قال: علامة صحة الوصلة بمشاهدة الحق، أنك إذا عكست مرآة قلبكَ إلى الكون، عرفت ما في ضمائر الكون، ويصدقك الناس على ذلك الكشف، انتهى.

واعلم أن أهل البَاطِنِ، لما عَمَّروا القلب بالحضُور مع الحقِّ، في سائر المواطن، ووفتهم، الجذبات الحقية، والنفحات الربية، استخلصتهم من قيد السوى، وحررتهم من رق الهوى، فخلصوا من الشرك الخفي، وأطلقوا من سجن الغفلات، التي سراج مصباحها طفى، فغلب على باطنهم التصفية من الأكدارِ، لمعَان أنْوار، رفعت لهم السُجف والأستار، فهانت الصعابُ، ودانت العقابُ، وحين تخلُّوا عن الشوائب، تحلُّوا بغرائب الأطَايب، ومتى تخلى القلب وتحلَّى، مولاه تولاَّه، عليه تَجَلَّى، وهناك لا يرون إلا الوجود الحق، والشهود الصدق، فينفون الخلقية بالكلية، لتوارد أحوال قلبية، وهذا من سكر الحال، وقهر الواردات للمحال، وينشأ عن استغراق مطول في مقام الجمع الأول، فيقول الغائِبُ بسكرهِ، عن عقلهِ وفهمِه وفكرِه:

- أنا مَنْ أهْوى ومَنْ أهوى أنا[1].

- ما في الجبة إلا الله[2].

ولا يقُول إذ يقُول، إلا من حيث الوُجود، الذي قام به كل مَوْجُودٍ ومنقُود، وإذَا صحا، رَجَع لشهود الفرق الثاني.

وعلى هذَا المعول عند أهل التَّداني، وهو حَقّ وخلق في آن، فلا يحجبهُ شهود أحدهما عن الآخر، وهذا مقام الإحسان، ومقام الخلفاء أصحاب الاقتفَاء والاصطفاء، فإن الأول يقول ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله، إذ الأذواق لا نهاية لها، كالسير

---

(١) صدر بيت من خمسة أبيات للشيخ الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية، وهذه الأبيات هي:

أنـا مَـن أهـوى ومَـن أهـوى أنـا ... نـحـن روحـان حـلـلـنـا بـدنـا
نحن مُذ كنا على عهد الهوى ... يُضرَب الأمثالُ للناس بنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا
أيُّها السائل عن قصتنا ... لو ترانا لم تُفرِّق بيننا
روحه روحي وروحي روحه ... من رأى روحين حَلّت بدنا

(ديوان الحلاج ومعه أخبار الطواسين، ص(١٥٨ ـ ١٥٩) دار الكتب العلمية ـ بيروت).

(٢) ينسب هذا القول للشيخ الحسين بن منصور الحلاج (انظر المرجع السابق).

الأخروي، فلا يكن ممن عنه النهى، فصاحِبُ الجَمع ذو عَيْنٍ، والفرق الثاني ذو عينيْن، والكامِلُ الرباني ذو عُيون، لأنه ذاق الجنُونَ والفنُونَ والسُّكونَ، ورأى ربهُ بعينٍ، ونفسه بعينٍ، ودنياه بعينٍ، وأخراه بعينٍ، وخاطب كل واحدٍ بما يليقُ، فأدّى المواطن حقها عن تحقيقٍ، وخلص من حبائل التعويق، فما خَلَطَ بين الرقائق، بل ميز بين الغث من السمين، وفرق بين السَّلْسَبيل والماء المهين، ولا ركب متن عَمْيَاء، ولا خبط عشْوَاء، بل حلب ضِرْع الأسرار بالساعد الأسَد، ولم يؤخر عمل اليوم لغد، للرأي الأسدِ.

فالصَاحي المؤيد كشفه بالنقولِ، مقبُول المقُول، والسَّكران يسلم له حاله ولا تقتدي به لعزم محلول، وهذا كمجانين أهل الله الفحول؛ أهل الجذب والغيبةِ والذهول.

[دَعْوَى الذّوق والمعرفة]

وأما الواعي المتساكر، ذو الحال الأفحم العاكر، فلا يلتفت إليه، ولا يعولُ عليه، فيه الأخبار الذوقية، لأنه يَدَّعي الذوقَ، وهو عنه أجنبي، فمن قبل منهُ، دلَّ على أنه جَهُول غبي، فإن من يَدَّعِي، عند أهل الله، يَدَّعِي، لا يُصْغَى لحديثهِ، ولو أسند وعنْعَن، بَل يُلغى، لأنه بالمفتريات دَنْدَنْ.

وإذا كان السَّكْرَان المحقُّ في سكرِهِ، لا يحتجُّ بكلامهِ كالحلاَّج، فكيف بالمتساكِرِ، الناهج في الليل الدَّاج! ، قال الأكبري، قال الحلاج، وإن لم يكن من أهلِ الاحتجاج: بسم الله من العارف، بمنزلة كن من الله. وقال في محل آخر، بعدما أثبت سكره بيقين: فالحلاج سعيد، وإن شقي به آخرون، أي بالسكر، فإنه نَهَج غير مستبين.

واعلم أن الظاهرين الآن، من أهل دعوى العرفَان، الزاعِمينَ، أن وجودهم الحادِث المقدَّر المفرُوض، هو بعينه وجود الحق القَديم، وذواتهم الحادثة العديمة، عين الذات العلية القديمة، ويثبتون لصفاتهم ذلك، وقصدهم إسقاط الأحكام، وإزالة التكاليف، وهذا مما يوجب الخروج عن ربقةِ الدين، الشَّرع الشَّريف، فهؤلاء ملاحدة فجرة، أرباب وجوه عليها غبرة، ترهقها قترة[١]، ضلوا وأضلوا، لأن إنكار الخليقة فيه معارضة للنصوصِ الحقية، ورفع للشرائعِ الإلهية، وإنكَار الأمور الأخرويَّة.

---

(١) القترة: ما يغشى الوجه من غبرة الموت والكرب (العين للفراهيدي).

وهذا مما لا يقوله من يجهله مكلم، فضلاً عن عالم، عارف، مكلم، فقتل واحد من هؤلاء الفجار، كما قال الغزالي[١] ـ حاوي الفخار ـ أفضل عند الله تعالى من قتل مئة كافر ذي إنكار، لأن هذا يغر بزخارف أقواله، ضعفاء العقول، ويوقعهم في المهمة المردي، نازلة المهول، وهو رفض الشريعة المطهرة، ذات السيف المصقول، حتى أن هؤلاء الأوغاد بالارتياب، يدعون أن الشرع الشريف، كلف به أهل الحجاب، وأن الشرع لأجلهم، اقتحم في عبوديته الأتعاب، لا قياماً بحق العبودية المحضة، لِرَبِّ الأرْبَاب.

فالله، الله، أيها الأخ، في اجتناب هؤلاء كل الاجتناب، واحذر أن يجمعك بهم منزل، أو تحل معهم في رحاب، فإنهم كما قال الإمام الجيلي[٢] المهاب، يفسرون الأحاديث النبوية، وآيات الكتاب، بما [لا] يرضى به من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتباع لسيد الأحباب، ويخوضون بحور عماية وجهالة، لقلة الأدب، وربما تصدر منهم عبارات لا تليق نسبتها بالجناب المقدس الأعتاب، فمخالطتهم توقع في ارتباك، وارتكاب ما يغلظ الحجاب، ويلفظ عن الباب، إلا من تَابَ، وَرَجع، وأنَاب، فإنه يرجى له حسن المتَاب من التوَّاب.

فانهج، مَنْهَج الإقلاع عن صحبتهم، واحْذَر عنها المدرج في الإنسان، وإن لم تفعل، فما نصحت نَفْسَك، فَتَأهَّب لجَوَاب يوم الحِسَاب، فإنه لا بد من الوقوف في صُفوفِ أرباب اليَقِين والارتِيَاب، والسؤال عن الفتيلِ والقطمير[٣]، لدى إسدال الحجاب، فمن سلم أدخل جنة شامخة الأطْبَاب[٤]، وإلا فالنار لمن حُقَّتْ عليه كلمةُ العذَاب.

نسأل الله السلامة، من شر العقاب والعذاب، واعمل بما صرحت به في «ألفية التصوف»، راجٍ بالنصيحة الثواب:

(ومـن غـدا مـسـلـوب الاخـتـيـار فـحـكـمـه تـسـلـيـمـه لـلـبـاري

(١) حجة الإسلام الشيخ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ولد سنة ٥٤٠ هجرية وتوفي سنة ٥٠٥ هجرية، من أشهر مؤلفاته (إحياء علوم الدين). (انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة [٢٦٦/١١]).

(٢) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي المولود سنة ٧٦٧هـ والمتوفى سنة ٨٢٦ هجرية. من أشهر مؤلفاته (الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر) بتحقيقنا.

(٣) القطمير: الفوفة التي في النواة، وهي القشرة الرقيقة، ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة. (الصحاح للجواهري).

(٤) كذا بالأصل ولم يظهر لي المعنى.

لا تعترض في فعله عليه / إذ عَقْلُهُ خَبَّأه لديه
وإنما يعترض الباقي على / عقل له وشرع طه قد قَلاَ
يقول ذا حقيقة ذريعة / كي ينبذنَّ جانب الشريعة
فاحذر على دينك من ذي القوم / ولا تجالسهم ولو في النوم
وقد نما في ذا الزمان شرهم / حتى سَما في الناس جداً ضرهم
ولم يكن لهم هنا من يردع / من أجل ذا الدين الحنيفي ودعوا
وعندنا في الشام منهم نفر / قلوب أهل الحق عنهم نفروا
طالع سيوفنا الحداد فيهم / كي تمسي ممن ربهم يهديهم)

[تأويل شطحات العارفين]

ولسنا مأمورين باتباع زيد وعمرو، ولو أنهما من الأنجاب، وإنما أمرنا أن نتبع ما جَاءنَا به الرسول عن التوَّاب، وإذا رأينا من خالف حُكماً من الأحكام، نرده عليهِ، ولا نرتاب، ولو أنه قُطب إقليم أو غوث أحقاب، فإن الكتاب ناطق بَالحقِّ، مُرشد صَوْب الصَّوَابِ.

وإذا رأينا في عبارة أحد من الأعلام موهماً، أوّلناه للطلابِ، كقولِ حجة الإسلام: ليس في الإمكان أبدع مما كان، فقد أوّلها الخوَّاص[١] المجاب، بأن ثمة إلا رتبة، قدم وحدوث؛ فالقدم لله والحدوث لغيره، فلو وجد ما وجد لا يخرج عن هذه.

وأولَّ قول أبي الغيث بن جميل[٢]: خضت بحراً وقف الأنبياء بسَاحلِهِ، فقال: هو بحر السكر، ووقف الأنبياء بسَاحلِهِ الثاني، ينقذون الغرقى منهُ.

وقد تصدى لتأويل ما أشكل من كلمات العارفينَ كثيرٌ من أهل الله تعالى، كالإمام الشعراني وغيره، والذي يجب علينا أن نعتقده، في خواص المقربين، أنهم لا يخرجون عن موافقة الشرع الشريف قدماً، لأنهم النواب والأمناء، والخدمة والسدنة لبابها، والحكماء، فأحسن الظن بهم، أيها الأخ، وأوّل مشكل كَلاَمهم، تَفز بالبر الجسيم، من الرحيم، لأنه أعلم بمرامهم.

---

(١) الخواص: هو الشيخ علي الخواص، كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ، أستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعراني، كانت حرفته ضفر الخوص (الموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني، ترجمة رقم ١١٧ ص١٩١).

(٢) هو الشيخ أبو الغيث بن جميل تحول من قاطع طريق إلى صوفي بعد سماعه هاتف خفي، روي عنه كرامات كثيرة، توفي سنة ٦٥١ هجرية. (الصوفية والفقهاء في اليمن).

قال الإمام النَّووي[1] قدس الله سره السوي، ما معناه: ينبغي للرجل إذا رأى في كلام أخيه مشكلاً، أن يطرقه سبعين احتمالاً، ثم يرجع على نفسه بالملامة، ويقول لها: قد احتمل كلام أخيك كذا وكذا من الاحتمالات، ولم يقنعك، انتهى، ومتى علمنا من إنسان حسن العقيدة وَجَبَ علينا أن نحمِلَ أقوالَهُ الموهمة على المحامل السَّدِيدَة...

[التمسك بالشريعة والعمل بميزانها]:

وقد ذكر الشيخ الأكبر عقيدته، أول فتوحاته، ليرد الواقف عليها، ما أشكل من كلماته، ومن أحسن قوله:

سائلي عن عقيدتي أحسن الله ظنه
علم الله أنها شهد الله أنه

وأنشد، محرضاً على اتباع الشريعة:

(ما نال من جعل الشريعة جانباً شيئاً ولو بلغ السماء مناره
لا تقتدِ بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنباء من الله)

وقال في الباب الثامن والعشرين بعد المائة: اعلم أن رضا الله عن العبد يكون بحسب مشيه على الشرع، كثرة وقلة، فمن أَخَلَّ بالعمل في شيء منها، نقص من الرضا بِقَدْر مَا أخل، وهذا ميزان في غاية الوُضوح، والإنسان على نَفْسِهِ بَصير.

وقال في الباب التاسع والعشرين بعد المائة: يجب على العبد الرضا بقضاء الله، لا بكل مقضي، فلا ينبغي الرضا بالمعاصي، ولو رأيت وجه الحكمة فيها، فإنك إذا كنت صحيح الرؤية والكشف ترى الله تعالى غير راض عنك في فعلها، وإن لم تره فارجع إلى حكم الشرع، ولا يرضى الله لِعِبَادِهِ الكفْرَ.

قال الشعراني رضي الله عنه في «الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر» بعدما نقل العبارة، قلت: وأكثر من يقع في الرضا بالمعاصي، أَصْحَاب حضرة التوحيدِ العَام إذا لهم شَيْخ، ويظنونَ بنفُوسِهِم أنهم خُوطبُوا بأمْرِ من الله، خلاف ما جاءت به الشريعة، وهذا كفر وتلبيس، فإن الحق تعالى، ما ينهى عن شيء على لسان رسُلِه، ويبيحه من ورائهم لأحد من أممهم، أبداً، فافهم.

---

(١) هو الشيخ أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي الدمشقي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، من أشهر مؤلفاته شرح صحيح مسلم (معجم المؤلفين [١٣/ ٢٠٢]).

وقال في الباب السادس والأربعين ومائة: إياك أن ترمي ميزان الشَّرع من يدك في العالم الرسمي، بل بادر لما حكم به، وإن فهمت منه خلاف ما يفهم الناس، مما يحول بينك وبين إمضاء ظاهر الحكم به، فلا تعول عليه، فإنه أمْر نفسانِي [مكر نفسي]، في صورة علم إلهي من حيثُ لا تشعُر.

قال: وقد وقعنا بقوم صادقين من أهل الله، ممن التبس عليهم المقامُ، ورجحوا كشفهم، وما ظهرَ من فَهْمِهم، مما يبطِل ذلك، وَهُم مخطئونَ في ذلك.

قال: واعلم أن تقديم الكشف على النص ليس عندنا بشيء، ولا عند أهل الله تعالى، وكل من عوَّل عليه، فقد غلط، وخرج عن الانتظام في شرع أهْل الله تعالى ولحق بالأخسرين أعْمَالاً، وأطال في ذلك.

ثم قال: وإذا ورد على أحد من أهل الكشف، وارد إلهي، يحل له ما ثبت تحريمه في نفس الأمر من الشرع المحمدي، وجب عليه جزماً ترك هذا الوارد، لأنه تلبيس، ووجب عليه الرجوع إلى حكم الشرع الثابت، وقد ثبت عند أهل الكشف بأجمعهم، أنه لا تحليل، ولا تحريم، بعد انقطاع الرسالة، وأطَال في ذلك.

ثم قال: فتفطَّنوا يا إخواننا وتحفظوا، من غوائل هذا الكشف، فقد نصحتكم، ووفيت الأمر الواجب علي في النصح، والله أعلم.

وقال فيها، في الباب السابع والستين وثلاثمائة: وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع ﷺ.

وقال عند الكلام على الأذان وأسراره: واعلم أني لم أقرر في كتابي هذا قط أمراً غير مشروع، وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء منه.

[العلم اللدني]

وقال في الباب الخامس والستين وثلاثمائة: واعلم أن جميع ما أتكلم بهِ في مجالسي وتصانيفي، إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، فإني أعْطيت مفاتيح الفَهْم فيه، والاستمداد منه، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسةِ الحَق تَعَالى، وَمُنَاجاته بِكَلامِه.

وقال في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة: جميع ما كتبته، وما أكتُبه في هذا الكتاب، إنما هو عن إملاء إلهي، وإلقاء رَبَّانِي، ونفث رَوْحَاني في روح كياني، كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء، والتبعية لهم، لا بحكم الاستقلال، انتهى..

ولو سردت عليك أيها الأخ، جملة ما حرض عليه الشيخ في اتباع الشَّريعة في فتوحاته وغيرها، لرأيت العجب العجاب، من اتباع دون ابتداع، وكمال أدب، وقد

أطبق العارفون على ذلك، بلا خلاف منهم، فيما هنالك، فإن كنت من أهل الاقتفاء، فهذه الآثار، وإن كنت من يرغب في خطاب الاصطفاء، فهذه الأنوَار.

[نصائح ووصايا]

وإياك، ثم وإياك، أيها الأخ، أن تميل مع كل ميَّال مهدار، أعذر من عذير، لا يعد في العير ولا النفير، هز أهتار، وكن ثبت الجنَان والأقدام، راسخ الأركان حال الإقدام، ولا تظن أن كُلًّ من حَفِظَ كَلمَات العَارِفين، وكررها في مَجَالِسِه للعَارفين، من أهْلِ الوجْدَان والذّوق، والفتح والمنح، فإنه خارج عن الطّوق، ولا سِيمَا من يذعوك إلى مَا لا سَلف لهُ فيه، إلا أفهام أردية، وَتَشَدق فيها بغية.

واتبع السواد الأعظم وما عليه الجمهور الأفخم، فإن يد الله مع الجماعة، ولن تجتمع الأمة على ضلالة، لها بشاعة، إكراماً لمن جاءها بالرسالة، وإعظاماً لمن أنقذها من الجهالة، ولا تلتفتْ لكل صائح، ولا تتبع السُّبُلَ، فإنها محشوة بالفضائح، ولا تعر سمعك لكل مُدّع، أنه نابل، لم يلقَ عند الطعن من مقابل، بل استمسك بالعروة الوثقى، والحبل المتين الأرفع الأبقى، فإن الباطل لا يبقى، والحق يعلُو، ويغلُو، ويرْقَى.

واستظلَّ بحمى الشريعة، التي هي الأصْلُ الأصِيل، والحَظ الطريقة، فإنها من دواعِي التّكميل، وغص بحر أسرارِها، المعبر عنه بالحقيقة، بباعِ طويلٍ، فإذا ظفرت بما أشرت لك به، كنت صاحب تنويل، وعرفت بإمداد الجَليلَ الجَميل، أن الكل شرع الوكيل الكفيل، فعانقت الآداب، ولزمت الباب، وَمَا زغت بِزُخْرف الأبَاطِيل، وجديت في العَمَلِ، وما توانيت إلى زَمَنِ الرَّحيل. ومن كلام السيار الأكبر الطيار، لمنازل التحصيل، لو قرض جسم العارف بالمقاريض، على أنْ يترك أدباً من آداب الشريعة، ما فعل، أو ما معناه فانتبه، أيها النبيل.

وقال في الباب الذي جمع فيه لباب الوصايا من كتاب فتحه المكي [الفتوحات المكية]، مبرء العليل: عليك بعلم الشريعة، فإن الشريعة هي سفينتك، التي إذا تَخَرَّقَت، هلكت، وهلك جميع من فيها، وأنت مسؤول عن إقامة حدود الله، في رعايتك الخارجة عنك، والداخلة فيك، ولا تعرف إقامة الحدود إلا بمعرفة شرع ربك.

[ملازمة تلاوة القرآن الكريم]

وقال الشيخ الأكبر في الباب الذي قبله، مجالسة الرسل بالاتباع، ومجالسة الحق بالإصغاء إلى ما يقول: فَكُن سَامعاً لا متكلماً، قال الشعراني في [كتاب] «الكبريت الأحمر» بعدما نقل هذه العبارة: وقد منَّ الله عليَّ في هذا المقام، بلذَّة لا

يقدر قدرها، حين أكون سامعاً، وأما إذا كنت أنا التالي، فلا أجد تلك اللذة، وما ثمة عندي الآن نعيم قط في دار الدنيا، ألذ من سَمَاعِ القرآن، والحمد لله رب العالمين.

وقال في باب الوصايا: عليك بتلاوةِ القرآن، ولو ثلاثة أحزابٍ كل يَوْم، ولا تهجره كما يفعل ذلك طلبة العلم، وبعض المتصوفة، زاعمين أنهم قد اشتغلوا بما هو أهم من ذلك، وهو كذب وزور، فإن القرآن مادة كل علم من الدنيا، فلا تكن ممن يهجر تلاوته، بل اتله إن استطعت، آناء الليل، وأطراف النهار، واستنبط منه ما شئت من العلوم، كما كان الأئمةُ المجتهدون.

وانظر في تلاوتِكَ، يا أخي، إلى كُل صفة مدَحَ الله بهَا عباده، فَافعلها أو اعزم على فعْلهَا، وكل صفة ذمّ الله تعالى عباده على فعلها، فاتركها أو اعزم على تركِهَا، فإن الله تعالى ما ذكر لك ذلك، وأنزله في كتابه إلا لتعمل به، فإذا حفظت القرآن عن تَضْيِيع العمل به كما حفظته تلاوةً، فأنت الرَّجلُ الكَامِل.

[تقييد الحقيقة بالشريعة]

وقال في الباب قبله: «الشريعة لب العقل، والحقيقة لب الشريعة، فهي كالدهن في اللب، الذي يحفظه القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة، والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادعى شرعاً بغير عقل، لم يصح دعواه» ومن ادعى الحقيقة بغير شرع لا يقبل.

واستدل عليه بقول الجنيد[1]: «علمنا هذا يعني الحقائق التي يجيء بها أهل الله مقيدة بالكتاب والسنة، أي إنها لا تحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وتلك هي الشريعة».

وقال الرسول ﷺ: **«إن الله أدّبني فأحسن أدبي»**، **«وما هو إلا ما شرع له، فمن تشرع تأدب، ومن تأدب وصل»**، انتهى ملخصنا من الباب الحاوي على العجبِ العُجَاب.

[هدر دم الصوفي المخالف للشريعة]

واعلم أن جميع أهل ممن يصطفيهم، أطبقوا عن بكرة أبيهم، أن المخالفَ للشريعة المحمديَّةِ، مهْدُور الدم، يقتل في الحلِّ والحَرَم، ولو أنه مشى على الماء،

(١) الجنيد: هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الجنيد إمام الطائفتين أهل الشريعة وأهل الحقيقة، أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، توفي سنة ٢٩٧ هجرية (الموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني ترجمة رقم ٨٩ [ص١٣٠]).

أو تربع في الهواء، فهو ممكور به، ليس له غير السيف دماء، وقد ردّ عليهم شيخنا الهمام المرحوم الشيخ عبد الغني المقدام، في محلاتٍ عديدةٍ من مؤلفاته المفيدة، وأفتى بقتل جماعة ممن ينتمون إليهم، منهم «ابن الصَّارم»، فقال في أبيات آخرها ما معناه: إن يكن ما تاب جهلاً فاقتلوه في أبيهِ.

[الاقتداء بالشيوخ المحققين]

ولم نرَ فيمن اجتمعنا به، من الأشيَاخ المحققين الصالحينَ، من خالف ظاهر الشرع، حيناً من الأحايين، لأنهم أرباب تمكين، وأصحاب دعوة وإرشاد للمنهج المبين، فإذا أردت النجاة يوم الدين، فبهؤلاء اقتد، تكن من المفلحين، لا ممن غلب عليه حالُه[١]، وقهره جماله[٢] أو جلاله[٢]، فإن الشطح[٣] رعونة في النفس، ونفس صاحبه تحت أسره مرهونة، فاقتفِ أثر أهل الذوق[٤] والشرب[٥]، بل أهل الري[٦] والرُسُوخ، لا أهل الاستطعام، فربما كان حكم ما رأوه منسوخاً، ورأسه مرضُوخاً.

---

(١) الحال: هو ما يرد على القلب من غير تأمُّل ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو غم أو فرح أو قبض أو بسط أو شوق أو ذوق أو انزعاج أو هيبة أو أنس أو غير ذلك، وإن الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود. وقيل: الحال تغير الأوصاف على العبد... فحاصل تسمية الحال حالاً، إنما هو لتحوله، وزواله. وسمي المقام مقاماً لإقامته واستقراره. (اللطائف الإلهية بتأليفنا).

(٢) الجمال والجلال: قال الشيخ في كتابه المسمى بكتاب (الجلال والجمال): «اعلم أن الجلال والجمال مما اعتنى بهما المحققون العالمون بالله من أهل التصوف، وكل واحد نطق فيهما بما يرجع إلى حاله، فإن أكثرهم جعلوا الأنس بالجمال مربوطاً، والهيبة بالجلال منوطاً، وليس الأمر كما قالوه. وهو أيضاً كما قالوه بوجه ما، وذلك أن الجلال والجمال وصفان للّه تعالى، والهيبة والأنس وصفان للإنسان، فإذا شاهدت حقائق العارفين الجلال هابته وانقبضت، وإذا شاهدت الجمال أنست وانبسطت، فجعلوا الجلال للقهر، والجمال للرحمة، وحكموا في ذلك بما وجدوه في أنفسهم». (لطائف الإعلام بإشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرزاق القاشاني) بتحقيقنا.

(٣) الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين. (اصطلاحات صوفية ورشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق للشيخ عبد الرزاق القاشاني بتحقيقنا).

(٤) أول مبادىء التجليات الإلهية (المرجع السابق).

(٥) الشرب: أوسط التجليات الإلهية (المرجع السابق).

(٦) الري: غايات التجلّي في كل مقام.

ولا تقنع بمن تقتدي به، بمجرد القيل والقال، فإنه لا يكفي إلا إذا، صحبه الحال، الكَشْف[١]، والعَيَان[٢]، والفتح[٣]، واللمح، والإيقَان شَاهِده.

أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني، أما من استغرقه قاهر الحال، وباهر وارد[٤] الجمال والجلال، حتى غلبه الشهود، وهيّمه صادر الوجود، فعاد غائباً عن الأكوان بتجليات الإحسان، لا يرى للحضور مع النور، إلا الرحيم الرحمٰن، مصرحاً: بالأنا والهو إليه، ولا يعول في الاهتداءِ عليه.

وكذلك الأنانيّات[٥] الموهمة الوَصْل والاتّحَاد، فلم يتمسك بها إلا ذُو إلحاد، لأن ظاهرها غير مراد، وإنما ضيق العبارة الموهم أفاد، ومتى رجع هذا المستغرق لصحوه، ألزم بقضاء الفوائتِ التي فاتتهُ في مَحْوِهِ.

[الفناء]

وعلامة النشْوَان، نادِيَ الحب حيْرَان، وأدى القُرب ولهان، أفْنانُ الشرب منهان، أدنان القرب، القُرب، أن يغيب عن الأنيس والجليس، والزمانِ والمكانِ، بل

---

(١) الكشف: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً.
قلت (المحقق): والكشف أنواع: كشف في عالم الملك: أي شهود حقائق المحسوسات أو شهود أنوار تجليات الأفعال. وكشف في عالم الملكوت: شهود عالم المعاني، أو نقول: شهود أنوار تجليات الأسماء والصفات، وكشف في الجبروت أي شهود أنوار تجليات الذات.

(٢) والعيان: قلت (المحقق): من العين، أي الشهود بالعين بعد انطواء بصرها ببصر البصيرة، ويعبر به عن شهود تجليات الحق تعالى في أفعاله وأسمائه وصفاته وذاته.

(٣) الفتح: الفتوح: كل ما يفتح على العبد من الله تعالى بعدما كان مغلقاً عليه من النعم الظاهرة والباطنة، كالأرزاق والعبادة والعلوم والمعارف والمكاشفات وغير ذلك.
الفتح القريب: هو ما انفتح على العبد من مقام القلب وظهور صفاته وكمالاته عند قطع منازل النفس، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ج ح خ د ذ﴾ [الصف: ١٣].
الفتح المبين: هو ما افتتح على العبد من مقام الولاية، وتجليات أنوار الأسماء الإلهية المعينة لصفات القلب وكمالاته.
الفتح المطلق: هو على الفتوحات وإكمالها، وهو ما انفتح على العبد من الفرق بين الكمال والشرف. والنقص والخشية: هو أن الكمال عبارة عن حصول تجلّي الذات الأحدية، والاستغراق في عين الجمع بفناء الرسوم الخلقية كلها. (إصطلاحات صوفية للقاشاني بتحقيقنا).

(٤) الوارد: قلت (المحقق): الوارد ما يرد على القلب من العلوم الربانية وأنوار التجليات الإلهية.

(٥) الأنانية: قلت (الحقق): قول: أنا وهي حقية كقوله تعالى: «إنني أنا الله لا إله إلا أنا»، وخلقية كقول إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] .

عن نفسه بحروف وصل نَفِيس، مجْهُور غير هَميسْ، مَتْلُو، غير طميسْ، منهوب القَرارِ، مسلوب الاختيارِ، لم يفرق بين السماء والأرض، ولا يدْري الطُّول من العمق والعرض، فمثل هذا المطروب يسامح لغيبه، في شق الجيوب.

وأما المتشبه به اليقظ المتنبه، الحاضر مع كونه وأغياره، العارف بنفسه في سائر أطواره، فهذا لا يسامح إذا سكر، وعربد في الكلام، لأنه غير محق في دعواه، خائض يم الآثار، ومثل هذا يصفع قفاه، ويلام، ويضرب، إن لم يرجع بباتر الحسام، فإن الأحكام الإلهية الشرعية تجري على أعناق البرية، ولقيمها الأجر التام، والثواب الجزيل من الجميل، والسلام.

ونسأل الله تعالى أن يؤيد علماء الشريعة الأعلام، ليقمعوا أهل الزيغ والإجرام من الزنادقة اللئام، إذ بأيديهم السيف الظاهر، وقد أمروا، أن يحكموا بالظَّاهِر، والله يتولَّى السَّرَائِر.

[علوم الحقيقة تدق على العقل]

واعلم، أن معارف القوم العالية، ومطارف أهل السوم الغالية، ورموزهم الدقيقة الملمحة بعلوم الحقيقة، تدق على العقول السليمة، وتخفى على الأفكار السقيمة، لأنها من العلم اللدُنِّي، الممنوح بالفيض الإلهي، لا التَعنيَ، ولا يدرك ذوقهم فيه إلا بجذبات للعبد توافيه، ويحتاج صاحب هذا المنهاج إلى نور كشف عَليّ ـ لا ضياء نجم، ولا سراج ـ ورشف جليّ يغني الساري عن الإبلاج، ويرفعه منصات القرب، على أقوام، أدْرَاج.

وكلما تملأ مقاماً، صاحب هذا السير، عزت علومه، ودقت فهومه على الغير إذا الكمل من أهله يتلقون علومهم عن المجيد، بواسطة الأحد الوحيد، ومشاهد، قول أبي يزيد: «أخذتم علمكم عن مَيت، وأخذنا علمنَا عن الحيّ الذي لا يمُوت».

ومنها [أي علوم الحقيقة]؛ علوم التوحيد وتجريده، والتفريد وتوحيده، والتحقق بأسرار أنوار القرآن العظيم، وعلومه، التي هي البحر الطمطام، والدر النظيم، وعجائب، غرائب السنة المحمدية، الشارحة للآيات الأحدية الصمدية.

ومن هذه المراتب الشامخة، تتجلى علوم الوحدة الباذخة، انجلاءً كليًا، وتتضح اتضاحاً جليًا، فلا يرى المُشَاهد اختلافاً في الأذواق والمشَاهد، لإشرافه على مجمع

البحرين[١]، وملمع البحرين، وسر الولادتين، والعثور على أسراره مخبوءة. وهذا كان طريق العارفينَ؛ طريق عين، يذهب الرّان، ونهب الغين[٢]، وقد قال الشاذلي الزين: من لم يتمذهب في مذهبنا ولو يومين، مات مصراً على الكبائِر والشينِ.

إذ طريقهم التخلق العلية، والتنزه عن السمات الدنية وقد صرح الأكابر، أن السير في طريقهم واجب، ولا مكابرة، وأنه لا يسلك إلا على يد خبير به، عارف بمذاهبه، وأن مواهب لا تقاد إلا لأهلها النقاد، وعلى هذا درج السلف، ونهج أثرهم الخَلَف، وأنشدوا:

وما كل يباح مصونه ولا   كل ما أملت عيونُ الظبا يروى

وقد شوهد بالعيان، أن التكلم بأسرار الأعيان، يوقع ضعف الأفهام في الإفتان، فحتم كتمان الأسرار عن الأشرار الخوان، لا سيما في مثل هذا الزمان، الذي عمّ فيه النكران، وطمّ ظلام الغفلة الأركان، وعاد فيه الدين المتين غريباً، والقابض فيه على دينه كالقابض على الجمرِ، تهذيباً، واستولى على أهله الميل إلى الشهوات والسهوات، والخوض في الغفوات المتلِفَات.

[التمسك بالسنة النبوية]

فإياك أيها الأخ، ثم إياك، الوقوف في صفوف أُلي الإشراك توقع في إشراك والإصغاء لمقال محتال، على إسقاط التكاليف لدينِه.

تَباكَ واستقم على قدم الاستقامة، وإذا أرادك لما يختاره هيأك، وماذا بعد الحق؟ إلا الضلال، وما بعد قول الله ورسوله إلا المُحَال.

وقد قال سيد الكائنات، وإمام أهل الأرض والسماوات، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف، وكرم: «**قد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كبيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعةِ، وإن**

---

(١) مجمع البحرين: هو حضرة قاب قوسين لاجتماع بحري الوجوب والإمكان فيها، وقيل: هو حضرة جمع الوجود باعتبار اجتماع الأسماء الإلهية والحقائق الكونية فيها. (إصطلاحات صوفية للقاشاني بتحقيقنا).

(٢) الغين: ذهول عن الشهود واحتجاب عنه مع صحة الاعتقاد. ملت (المحقق): الغين: الأغيار: احتجاب العين عن البصيرة بالغين أي الأغيار. (إصطلاحات صوفية للقاشاني بتحقيقنا).

عبداً حبشياً، **فإنما المؤمن كالجمل الأَنِف حيثما قيد انقاد»**، رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن عرباض.

فمن نهج على هذه المحجة نجا، ووفى بمعرفة الحجة، ومن أراد الزيادة والتخلق بأخلاق السادة، فيتبع السلف، وليترك ابتداع من خلف، وليحسن بربه الظنونَ.

واحذر كل الحذر، أيها الأخ ـ الذي عليه بالإيمان ممنون ـ من الميل إليهم، والركون لما لديهم والسكون، ولا يستخفنك الذين لا يوقنُون.

ولنلخص لك من هذه السطور مجمل طريق السلوك المعمور، بإمداد الغفور، الذي سار عليه أهل الطرائق العرفانية، والرقائق العيانية الإحسانية، لنتحقق بسرد ما حواه، من أطوار حسن الاتباع، من الأتباع الأخيار، ويستبين لك أن القوم الأطْهَار، لم يفارقوا قدماً للسيد السَّند المختار.

[التربية والسير والسلوك]

فنقول: اعلم، أيها الراغب في سلوك طريق المواهب، أن السير فيه، سير باطني، غير محسوس، ويكون أولاً، بالمجاهدةِ في النفوسِ، وقد درج أهل العبور في ميادينه ذات النور، على تخريب العادات السيئة، وتهذيب النفس بالرياضَاتِ والعِبَادَات.

وأول ما يأمرون به المريد: التربية، بالتخلية والتحلية، بعد أخذ العهد عليه، أن لا يخالفهم فيما يدعونه من المبرات إليه، وأن يكون عندهم كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف شاء.

وهو مقبل على أمره غير كاسل، يحضون على تصحيح العقيدة، لتكون أعماله بعد صحتها مفيدة، فإن من فسدت عقيدته ـ والعياذ بالله ـ انطمست بصيرته، وضلَّ، وتاه، وكان بناؤه على شفا جرفٍ، هارٍ، ووَاهٍ.

ويحثونه على القيام بالأوامر الشرعية، وترك النواهي التي للشارع مرعية، ثم بعد الاستقامة على الشريعة الغَرَّاء، يأمره بالأخلاق المرضيَّة، سراً وجهراً، وبالذكر الجهري أولاً، ثم الخفي ثانياً، ليتنور به الظاهر والباطن، ويشرق لبه وقلبه، ويستنير من اللطائف المواطن.

وهذا إذا رآه صادقاً في الطلبِ، رغباً في التأدب بآداب أهل المشرب مقبلاً بكله، وتالِه متوهجاً لربه، بذله، فارغاً عن الشواغل والأغيار، مملوءاً بالمآثر

الحميدة، رافضاً للأهل والديار، بتوجه القلب، على حسب الإمكان، راجياً الفتح والإرشاد من الرحيم الرحمٰن.

وفي هذه المدة القريبة، يَسُوقه للمراقي العجيبة، فتشتاقُ الرُّوح، وتنساق للسبُوح، وتحن لمعهدها القديم، ومحلها الأرفع الكريم، وهناك، يرقيه، رتبةً فرتبة، واسماً فاسماً، ويفتح له باب الفهم عن الله، بإذن أسْمى، فيعرض كل ما طرق باب قلبه من الإفهام، على الأصلين، فما وافقهم، أخذه، وإلا ضرب الحائِط، بأقدام.

وترقيته، إما بطريق الإشراق، وأوله بطريق المبشرات المانحة الإسعاف، وهذا الحال، حال العباد، أهل الورع، والتوكل، والزهد، والتبتل، والأفعال الصالحة، التي موازينها راجحة.

ثم إذا استقام على النظام ـ وشمر ساق الاستباق، إلى سارب الاعتباق والاغتباق ـ يعرفه الأستاذ طريق المراقبة للأنفاس، الحقية، والتعرف إلى الله في الرخاء، ليعرفه في الشدة البرقية.

وفي هذا المقام يلوح له في باطنه، أنوار جذب، بسلاسل قرب لطيفة، ويرى فيه، سراجاً ملكوتياً، يدرك به، ما فيه من علل خفية، فيشفى منها، ويترقى بالتوجه إلى الله عنها، ويستعين على الخلاص والإخلاص بالصبر والصلاة، ولات حين مناص.

ويساعده على فك ما على قلبه من أقفالٍ، عن طريق الخلوات والجلوات، العراض والطوال. وإذا تصفى من كدرات البشرية، والإخلاد إلى أرض الطبيعة النفسانية ـ ببركة الاتباع للسيد المصطفى، والسند المقتفى ﷺ ـ تخلص من قيود الموانع الكونية، وتنزه عن القواطع الظلمانية، بصدمات الأنوار الربانية، وأيد بالأنفاس الرحمانيَّة، وأمدّ بِشُرْب الأطواس الإحْسَانِيَّة، فقوي بها جأشه، وتمهد بنورها فراشه.

وهنا يدخل دائرة الولاية الصغرى، وهي شهود توحيد الأفعال بلا امتراء، فلا يرى فاعلاً بحال، إلا الخَلاَّق الفَعَّال، وبهذا الشهود، يخلص من ورطة الشرك الخفي، ويدخل ميادين الاصطفاء، مع ممن اصطفى، ويحصل على الموت الاختياري الإرادي، ويحظى بالقُربِ، والشرب، الإسعادي الأمدي.

[اليقين: علم، وعين، وحق]

ولهذا المقام، علم يقين، وعينه، وحقه، وهكذا المقام الذي فوقه، إذ لكل واحد منها، بداية، وتوسط، ونهاية.

* فمن ارتقى فيه إلى درجة علم اليقين، سلم من داء العجب والرياء وأشباههما، بيقين.

* ومن وصل فيه إلى رتبة عين اليقين، دخل الجنة المعجلة، للمتقين.

* ومن جاوزها إلى منزلة حق اليقين، غاب بشهود أفعال الحق عن شهود أفعال المكلفين، ولم ير إلا الفاعل المختار، آناءَ الليلِ وأطْرَاف النهار.

ولهذا الشُّهود، رواف ممدود، وأذواق علية، وأتواق جلية، أشار إليها عارف الزمان سيدي أرسلان، قدس الله سره المصان، في رسالته الصافية الأدنان.

ولا تدرك بعض هذه الأذواق إلا بالجِدِّ والاجتهاد، على طريقها المعتاد بالتوجيهات والمنازل القلبية الواسعة، أردان الإمداد، لا بمجرد العلم، فإن الذوق فوقه بدرجات، تعنى وتراد، وتبدو لدى صقال مرآة البصيرة، بالأذكار والأوراد.

وهذا حال الصوفية، أهل المراتب الوفية، المتخلقين بالأخلاق المحمدية، من رضا، وعفاف، وصبر، وكفاف، وغير ذلك من سمات مرضية، مصاحبة لهم كل حين، إلى أن يدركهم، داعي اليقين، وهو الموت الحقيقي، لا المجازي.

[توحيد الأسماء]

أيُّهَا الأمين على أسرار الشرع المتين، ثم بعد هذا التحقق الأسْمَى، ينشقه المربي، عرف توحيد الأسماء، حتى يصطلم تحت أنوارها، ويغيب بلوامع هوامع أطوارها، وإذا طاب وغاب، وامتلأ بأسرارها، منه الوطاب، رأى بحرها كله عجب، وبرها منبت بالأجِبًا، يَمُّها واسع المد، محيط، وبرها شاسع، به الفكر لا يحيط.

وهنا يشاهد كل اسم إلهي، اتصال بالأسماء كلها، فيتعلق بها، فرداً، فرداً، ثم يتحقق كذلك، ليشهد أسرارها تهدي، وله تهدى، ثم يتخلق بها تخلقاً تاماً، فيفهم منها أمراً خاصاً وعاماً، ويعاين مدداً طاماً، وإسعاداً آماً.

وكل من أحصاها ـ أي الأسماء الإلهية بهذا الطريق ـ دخل جنة عرفَانها على التحقيق، ويتجلى له من علومها، ما قدر له بنيله، فلا تقسه، بسجون حالة سيله، ولا يحجبون فراقه ولا نيله، فإن فيض الحق لا يمثل، إذ عطاؤه دائم لا يتحوَّل.

وفي هذا المقام يتحقق الواصل بفناء الرسم والاسم؛ الفناء التَّام، ويرى غب محو الأفعال، وزوال الرسم، والاسم المنهال، وحدة الفاعل والمسمَّى، فيغيب به عنه حتماً، وربما لم يطلق كتماً، فيشدو:

أرى رسمها غنى يعوض عن رسمي فما بالهم في الحي يدعوني باسمي
إذا ما دعا الداعي بعلوة فأستجيب ولكن إذا أفنتك عنك على علم

أي إذا فنيت بتجلي الباقي ـ أي الله ـ، عن علم ويقين واقٍ، لم ترَ وجود سِوَاه، إذا هو الذي أبرز الشيء وسَوَّاه، فغاب المشاهد بنوره وخشع، لأن الله تعالى ما تجلّى لشيء إلا خضع، أي فني عنه، وبقي به، مستمداً منه، وهذه دائرة الولاية الوسطى، التي هي للقلادة السلوكية وسطى.

ثم بعد هذا المشهد المصمود، وذوق تجلياته، التي لا يكفيها عقل محدود، يلمح له بالمشهد الصفاتي، ويرشفه كأسها الأصفى في الوقت الحالي، والماضي، والآتي، وينفتح له هنا باب الولوج في عوالم السر، بعد دخوله عوالم القلب المدبر، والروح البريء، ويتسلق إلى حلول طلول، عالم الخفي، والأخفى، بحال وفيّ، وفي كل عالم منها عوالم لا تحصى، وفتق غيوب، جيوب لا تستقصى، وفي هذه الأطوار يبلغ الواصل لها، سافر الأطوار، وربما ينكشف له عن تجلٍّ، مخاطبات الأُنس في حضرات القدس، ويشاهد في محاضر العلا، مناظر الوَلاء والاسْتجلاء، ويأمر فيها بإخفاء ما يظهر من أسْرارٍ وأحوال، لأن علوم هذا المقام غريبة مما لا يقال.

واعلم أن علاقة من تجلَّى الحَقُ سبحانه وتَعَالَى عليه، بصفة من صفاته؛ أن يدرك به تعالى، ما لتلك الصفة من المحال الرفيعة التي عنها شفه، وأن يدرك ذلك من نفسه، ولا تحقق به في عالم قدسه، فهو صاحب دعوى، لا شهود، وشطح مردُود عليه به، غير معدودٍ، وهذا المدعي ببهتان، كذبته شواهد الامتحان.

وصَاحب هذا المشهد هو الملامتي الفرد، والملامتية[1] انفردوا بقلوبهم مع الحق، فلا ينزلون عن عبوديتهم طرفة عين، ولا يدركون للرئاسة طعماً، لاستيلاء الربوبية على قلوبهم، تحققاً وعلماً، لأنهم على صلواتهم دائمون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملُون.

ثم بعد التحقق في الصفات، نفى عن حبه الآفات، يفتح لطالب الارتقاء، أبواب العطاء، قفل باب مثله لم يفتح، لأن التجلي لا يتكرر، بل هو مُنْسَاب.

(١) الملامتية: «هم الأمناء الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر البتة وهم أعلا الطائفة (الصوفية) وتلامذتهم يتقلبون في أطوار الرجولية، وسمُوا بالملامتية لكونهم دائمي الملامة لأنفسهم، فهم مع أنهم أعلا القوم علماً وعملاً وحالاً ومقاماً، فإنهم لا يرون أنفسهم كذلك، فلهذا لا ينفكون عن اللائمة لأنفسهم» (لطائف الإعلام للقاشاني بتحقيقنا).

وبعد التحقق في رتب الفناء التسعة الحلوة الجنا، وذوق مقامات البقاء، والاستقصاء من حوض اللقاء، بلوح، بلوح أروح، شهود، كنز، التوحيد الذاتي، ويثمر أشهاد هذا الكشف، الجامع الهامع، بكل سر موات، نتائج غيبية، لا يلمحها إلا عقل كلي، ولا يترسخها، إلا فهم مستمد من النُّورِ الإلّهي.

وهذه دائرة، الولاية الكُبرى، المسفرة بالعجائب، دُنْيا وآخِرة، وهنا بلغت المنُ، فتطيح الإشارات، وتضيق العبارات، وتتضاءل الفهوم، وتتقاصر مطولات العلوم، وتفنى الرسوم بتجلي الحي القيوم، وتأتي العلوم اللدنية، الطرية الجنية، ويكون الأكل من فوق، لا من تحت الأرجل، لتمكن وطوق.

وتعظُم في هذا المقام، الحيرة المحمودة، ويقر صاحبه بالعجْزِ عن المعرفَةِ الكُليةِ، المصمُودَة للذاتِ الإلهيَّة، عن طريق الصفة الثبوتية النفسيَّة، التي الحق تعالى عليها في نَفْسه، إذ العقل لا يدرك بنظره إلا صِفَات السلوب، فيقُول الواصل، الكاشِف عن عذب هذه المراشف، سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، عجز الواصفون عن صفتك، وهذا العجز فيه العز، وهذه الحيرة فيها الخيرة.

ومن هنا يقع طَير السير، في فخ مير العبودية المحضة، فلا دعوى، ولا أنا، عند من عرف الله هنا، وحاز الهنا، لما بلغ المنا، فلا تصريح، ولا كنا، ولا شطح يوجب عنا، بل فقر لاذب، وضعف للالتجاء جاذب، وخشية دائمة، ورهبة قائمة، وطرف دامع، وسمع سامع، ولسان ملجم، وجنان مكلم فارغ من الكونين، مملوء بشهود الحق، بلا بين، ولا أين، يرى من العلل الموجبة الخلل، والأمر الجلل، مقيم في سفر، حكيم نظره، ونظر لا يسترقه كون، مستُور في مواقف الصَّون، يستر حاله بمقامه، وَمَقامه بحاله، لا تفي البراعات بما أعطيه في نفسه، عرف ربه بربه، فنال كَامل، شَامل، قربه.

[منهج العارفين]

فهذا مجْمَل سير أهل الله العارفين، وملخص ما نبّهوا عليه للطلاب العارفين، وهذا المنهج الأبهج، إذا حققت فيه النظر، لم ترَ ما يخالف نصاً، نوره بهر، بل ما يكسب ارتفاعاً، وانتفاعاً، وانقطاعاً، عن الغير، واجتماعاً بالمقرب، يكشف قناعاً، وإذا عرفت قواعدهم، وما بنوا عليه مقاعدهم، تراهم على التحقيق والإشاعة، من أجَلِّ علماء، حكماء أهل السُّنة والجماعة، وإذا جمعتهم في نظرك السعيد في صعيد، لم ترَ فيهم إلا، وليًا حميداً، بل شهيد.

[الأولياء ضنائن الحضرة]

فكيف بعد هذا العَيَان، يطلق فهم اللسان، مع أن كلامهم مؤول، ومرامهم عن الشريعة الغراء، لم يتحول، ولا يدرك على الأعقاب، ما تسمعه من زنادقة استحقوا العقاب، فإنهم بريئون منهم، ومن اعتقادهم الفاسد، لا يلحظونهم قط، لاتباعهم الضَّلال الكاسِد.

ولا يتجرأ ذو عقل على معاداة أولياء الله، فإنهم ضنائن حضرته، الذين يغار لهم الله، ولأنهم أهل القباب الصُّوفية، الرافع عنهم الاشتباه، والدافع عنهم بالانتباذ كل لاه.

فالله، الله، أيها الأخ في الله، والمحب لوجه الله، الصَّديق الأوَّاه، إياك، ثم إياك، أن تقع في استنقاص أهل الله، لسماع أقوال من أضلهم الله، وأعمى أبصارهم، فكانوا حِزْبَ عدو الله.

[إشهاد]

وإني أُشهِدُكَ أيها الواقف، على ما فاهت به مني الأفواه، أني آمنت بالله، وبما جاء من عند الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء به رسول الله، على مراد رسول الله، وإنَّ كل من خالف كتاب الله وسنّة رسول الله، فإني بريء منه في الدَّارين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله لنا ولإخواننا الاستقامة على طريق الله، إلى أن نلقاه، وهو راضٍ عَنَّا، بجاه محمد ﷺ، ومن والاه.

والله، ثم والله، الذي أعتقده، ثم أدين به، الله، أن أهل الله لو خلفوا رسوله قدماً، ما نالوا شيئاً من الله، إذ هو باب الله، ولو لم يتحقق صدق حبهم، واتبَاعهم لخيرة الله، لهجرناهم في الله، لله، لكن الذي علمناه، حققناه، ما ذكرناه، والحمد لله، ولا بد إن شاء الله إذا جاء ختم أولياء الله، محمد المهدي بن عبد الله، أن يعلن بذكر أهل الله، ويقمع بسيفه الملاحدة الفجرة، بحول الله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين.